مئذنة مهجورة
نبتا جحيميا بلا ثمار »

هكذا يلخص القاسم مأساته أمام مأساة شعبه. وهو هنا يحاول ان يعيد جمع طرفي المعادلة التي دخل فيها . ويستطيع عبر اسطر صغيرة ومكثفة في حجمها الانفعالي ان يضعنا في قلب المأساة . وان يعيد ترتيب الواقع انطلاقا من المأساة التي يحاول أن يتغلغل في داخلها كما تغلغلت في داخله. ويوالي سميح القاسم نسج قصيدته على هذا المنوال . فاذا بنبوته المفترضة تتحول الى حركة داخلية لا تستطيع التعامل مع الذات ، فتخرج الى الموضوع وتعيد صياغته مجددا وتحاول ان تعيد رسم اطاراته .

في القسم الاخير من قصيدته ، يحاول القاسم ان يعيد صياغة الماضي ، بعيني الطفل ووعي المسافة التي تفصل دفء الطفولة عن برودة الواقع. فاذا به في رثائه لطفولته ، يتحول الى شاهد للمأساة دون ان تتدخل شهادته في صياغة هذه المأساة . فالمأساة تتحول الى واقع ساخر .

« في طفولتي اشترت لي أمي قبعة
فاصبحت بحارا انجليزيا
واشترى لي ابي قميصا
فأصبحت احد رجال الكيبوتس » .

هذه السخرية الحارة،تحيل البسمة التي ترتسم على طرف الشفتين الى شعور بالانسحاق امام فداحة ما يجري فتعيد الطفولة رسم الواقع من زاويتها هي . ويركض الشاعر من هذا المنطلق ليرثي الطريق فاذا به يتمدد « ممزقا بين التفاحة والحجر والوطن » . وحين يرثي نفسه ، فانه لا يرى سوى الجثة الممددة والبندقية المكسورة امام الزوجة الناظرة الى الوديان حيث يصهل جواده الابيض . ثم حين يرثي الجندي المجهول والذين لم يموتوا بعد .. فان ابصاره تنشد صوب يوحنا . حيث يرتد المسيح الذي سوف يولد المراثي وتعود حركة التاريخ لتكتشف توجهها نحو المستقبل . وتتساقط المراثي أمام حلم الميلاد الذي سوف يأتي .

حين يستعيد القاسم « مراثي ارميا » ويدخل في اعماق مأساة شعبه عبر مأساة العدو . فانه يقوم في الواقع بمحاولة اختراق متكاملة للجدار الذي يفصل بين الحلم والفجيعة . والواقع ان الشعر الفلسطيني حاول ان يمد جسرا بين واقع التشرد الذي يعيشه الشعب الفلسطيني وبين اساطير التوراة . لكن « مراثي سميح القاسم » هي اول محاولة متكاملة لكسر هذا الجدار . ومحاولة الدخول الى العقل المأساوي الجماعي في توجه يريد تدمير الذات في الواقع . تمهيدا للميلاد الذي ننتظره . والذي بدأ صوته يعلو من حنجرة يوحنا .

غير أن محاولة الوصول الى الهدف تصطدم عند القاسم بالعديد من العقبات .

فهو **اولا** بقي مترددا بين الدخول في النبوة الحقيقية وبين الاطارات القديمة التي ميزت شعره السابق . فلم تتحقق القفزة النوعية في بنية القصيدة . حيث بقي الخيط الواحد يشد جميع الاجزاء المتناثرة . ولم يستطع الشاعر ان يبعثر وجوه المأساة التي يرثيها . بل بقيت بوجه واحد ولو تلطخت بالدماء في احايين كثيرة .

ولم يستطع **ثانيا** ان ينقل الازمة التي تحيط بمجمل العملية الفنية التي دخلها . فبقيت الازمة على سطح الرؤية الفنية . وبقي التعامل معها خارجيا في مجمله . رغم بعض المقاطع التي تتصف بالكثافة الفنية وبالتنوع الموسيقي والتي لعبت دورا هاما في انقاذ القصيدة من التساقط .

وثالثا لم يستطع الشعر ان يتعارك مع اللغة عراكا فعليا. فبقيت اللغة بنية تتوالى حول الانفعال تنقله بالكلمات الناجزة ، اي ليس هناك بحث عن اللغة الجديدة التي تستطيع ان تشتعل أمام مرثية تحترق فيها الانفعالات وتشدها هندسة البناء الشعري استطاعت ان تحيط بالعديد من هذه الانفعالات . وتصل المراثي الى الازمة . فالشعر الفلسطيني يمر في مرحلة انتقالية صعبة . انه يحاول اليوم ان يجد لنفسه مكانا متميزا تحت سقف خريطة الشعر العربي . وهذه المرحلة مشروعة بمقدار ما هي اصيلة . أي بمقدار ما تستطيع ان تعبر عن تحولات فعلية داخل رؤية القضية من زواياها المختلفة . فالشعر الفلسطيني يحاول ان يتجدد في اتجاه المغامرة الفنية . أي داخل اكتشاف الابعاد المتجددة في الرؤية الفنية نفسها . الشعر ليس عملا سياسيا دعاويا او تعبويا فقط . انه ابتعاد عن الواقع في محاولة للدخول في مغامرة اعادة اكتشافه. وهو بهذا المعنى يكتشف ثوريته بارتباطه بالواقع الثوري في حركته وليس بتجميد هذا الواقع لحظة العمل الفني .